

زورق الأحلام ...

للاستاذ عبد المنعم خلاف

في فتوح العلم وقيمتها في عقائد الحياة ...

إن فرحي بوصول زورق الأحلام في هذا الأوان الذي يجادلني فيه المجادلون في قيمة الإنسان لا يعدله إلا فرحي يوم طالمت الإعلان عن كتابي «أومن بالإنسان» في جريدة الأهرام منشوراً تحت خبر الوصول إلى سراقنبلة القرية الذي أعلنه تزومان وأتلى، فشعرت أن هذا التوافق المصادف إشارة موافقة من الأقدار على فكرة الكتاب ! ولقد ظل هذا الإعلان ينتظر في الأهرام دوره في النشر ما يزيد على شهر حتى أتى ذلك اليوم . ولو خيرت ما اخترت غير هذه المناسبة للإعلان ولو تأخر شهوراً أخرى ... ولو طولت بأجر على ذلك التأخير وتلك الموافقة التاريخية لدقته عن طيب خاطر ؛ فإنه ليس بالقليل أن ترى الأقدار تؤنسك بلفتة من لفتاتها وتتطوع لتصديق رأيك بتقديم دليل جديد يؤيدك وأنت في شك مما سيقابلك الناس به غداة الإعلان على رهوس الأَشهاد عن قضيتك : «أومن بالإنسان» !

وحسبك من جزاء على التبشير بمستقبل الإنسان في زمن الشك والجهود به أن ترى أو تسمع كلمة تصديق وتشجيع ينطق بها ناطق الزمان فجأة وعلى غير انتظار !

وإنه لنصر في أول الطريق يثير الشجاعة إلى المضي إلى آخره حين تحس أن الكون معك بهتافاته وإرهاصاته !

وإن القضية التي يُعلن عنها وتدخل إلى الأذهان مع صدق ذلك الطارق الجبار العنيف الذي تنصف القدرة الإنسانية به مدينة في لحظة تترك عليها ساقطها ، لقضية ينبغي أن تكون أسلوباً جديداً من أسلوب تجديد الدعوة الدينية ، دعوة إقرار القيمة العليا التي للوجود ورب الوجود وخليفته في الأرض !

إن خطوات الفكر الإنساني في مجالات العلم السرية والجهرية خطوات متلاحقة تظالمنها بهل الصحف والمجلات مع كل صباح ، ولكن على الأبعاد والمسافات الشاسعة في سرعة بالجسم البشري الثقيل ، رهين الأحباس والقيود بطيران يخترق حجاباً وراء حجاب ، ويركب طبقاً عن طبق فوق العباب والسحاب والتراب ،

هذه السفينة الجوية الجبارة التي طارت في أربعين ساعة من هونولولو إلى القاهرة في مرحلة واحدة ، مصعدة إلى جزر الوشيان وشبه جزيرة الاسكاو منطقة القطب الشمالي ، ثم حادرة إلى جزر جرينلند وأيسلند والجزر البريطانية والقارة الأوربية والبحر المتوسط ، مخترقة أجواء مختلفة ومناطق متضادة ، حاملة عشرة رجال من طلائع الإنسانية الحديثة ... إنها زورق أحلام حقاً تطير به الإنسانية كلها من أسسها إلى غدها في غزوة من غزواتها للطبيعة

أجل ، ليس الذين طارت بهم عشرة وحسب ، وإنما هم الإنسانية كلها عبرت حاجزاً ، وكسرت قيداً ، ونحطت عقبات ، وكشفت مجهولاً ، وأدخلته في رحاب المعلوم ، وصححت أخطاء ، ومهدت طريقاً لنفسها في سبيلها الخيوط نحو صوب مجهول ...

وإنه لزورق أحلام حقاً عاشت به الإنسانية الواعية الراسدة في حلم سديد ما لبث معبر الزمان أن أوّله وعبره مع فلق صباح جميل على أرض النيل ...

وقد أحسست قلبي يرافق هؤلاء المشرة حين علم بانطلاق ذلك الزورق من قيود الأرض هناك في هونولولو ، فإن فيهم سر نوعه الذي وثق به وآمن بمستقبله ودعا إلى ذلك ...

وإنها للحظة فرح عميق سجلت على لوح الأرض حين بلغ هذا الزورق مرساه في غزوة من غزوات الإنسان لخصون الزمان والسكان ...

ولو قيل للناس : إن ملكاً أو جنّاً سيظهر إليكم من هونولولو إلى النيل تخرجوا إليه في يوم مشهود مجموع له ليروا دوا فضولهم ونهمهم بمحدث متاع لا يزالون يجترؤنه ويذيعون سيرته مدى أعمارهم ... ولكن الذين طاروا كانوا عشرة من الناس ذوي الوجوه المألوفة والأجسام المحدودة المروقة ، ولذلك قل من أجنه لهم من هذا الجنس الذي لا يزال ذاهلاً عن قيمة ما يصنع

وبين المناطق المتعاضدة الجواء ، وعند قمة الأرض في قعرها الشمالى ،
حيث البقاع التى يعمرها السكون الموحش والصمت المطبق
والمناطق البكر والسهوب الثلجية التى تتجمد فيها الحياة وتضل
فيها خطرات الظنون والأوهام — يجعل أمر اليوم الذى جعله
زورق الأحلام أمراً خطيراً كبيراً يراه العوام قبل الخواص ،
فيشمرون جميعاً أن هذا هو المجال الأصيل للجهد الإنسانى كله
لر عقل الناس !

أيها الزورق العابر مناطق الجو وفضاء النفس البشرية !
الفاهر لما فى الآفاق من سدود وعوائق ، ولما فى النفس من
شكوك وقيود تقعد بالإرادة البشرية عند المعجز القديم الذى
يقعد بينى الإنسان عن أن يبلغوا غايتهم من السيادة التى أرادها
لهم خالقهم حين ينهبهم كل يوم إلى أنه ليس هناك باب فى الطبيعة
مكتوب عليه « ممنوع الدخول » إذا ما كان فى أيديهم المفتاح !
لقد كانت حولتك أيها الزورق من أحلام البشرية العاملة
الراصدة أضامف حولتك من ثقل الحديد والفولاذ والوقود وأجسام
مسلحيك !

ولقد سَلِمْتَ تلك الأحلام من الارتباط بصخور المعجز
والشك والوهن والكسل عن الاقتحام حين سَلِمْتَ أُنْقَالَك
من الارتباط بصخور الأرض !

وإن اليد الإلهية التى حملتك وسددتك إلى غايتك من غزو
المجهول وكشف المستور وتصحيح المغلوط ، إنما هى يد تشير
بالموافقة وتلوح للقاعدين على التراب أن هُتِبُوا وبِحَكَمِهَا النوام
إلى السحاب ، ولا تقعد بكم عقائد الجهل ومشبطات الهمم عن
محاولة الانطلاق وراء أحلامكم الطليقة ما دامت لا تبطل حقاً
ولا تحق باطلا

وما كانت عبثاً تلك الطاقات المذخورة من الأحلام التى عشم
بها أيام المعجز القديم ، ورفرف بها خيالكم حول عالم القدرة
والحرية ...

أجل ، ما كان ذلك عبثاً ، وإنما كان إعداداً لهذا الحاضر ،
وتدريباً باللعب على مستقبل حياة الجد والاكتمال ، وإرهاقاً
للمزائم والإرادات ، ودفعاً لها إلى أن تحاول تحقيق الأحلام فى
عالم اليقظة !

أيها الزورق ! لقد أُنْقِيتَ بمحولتك من الأحلام التى حملتها
من تلك الجزيرة التى كانت مجهولة غائبة فى المحيط الأعظم إلى أرض
النيل التى عُرفت فى دفتار التاريخ أنها أول أرض حاول الإنسان
فيها تحقيق الأحلام وتجسيم الآمال ، وحبب الإنسانية على عبثاتها
ودرجت وخطت إلى بعض غاياتها فى الآلاف الأربعة قبل الميلاد ،
فكانت هذه الرحلة عبور لطريق الحضارة الإنسانية من آخرها
ن أمريكا إلى أولها فى مصر ...

وكم ذا من الآماد بين الأمس البعيد واليوم ! وكم من جثث
الرواد الذين عبدوا هذا الطريق مطروحة على حافتيه ! وكم رأى
هذا الطريق من وجوه تطلعت فى نهاياته البعيدة فهالها بعد الشقة
فقدت حيث ولدت إلى أن ماتت ودفنت فى حفرة وأغواره !
وكم قرعته لأقدام القافلة الإنسانية فى وقع رهيب وزحف وديب ،
وصلصلة قيود وأصفاد جعلتها تسير ثقيلة الخطى ، محرومة الهدى
مطموسة الأفق !

واليوم أيها الزورق الخالم ، تلقى طائراً فى أربعين ساعة من
أقصى الأرض ، وفى هبوة من هبوات الرياح تثير غباراً فى أترك
هو لا شك رفات مسحوق من عظام أولئك الرواد الذى ماتوا
على الطريق ودفنوا فيه !

وحسبهم عزاء أنهم رأوا ذواتهم غباراً يلحق ذيلك الجرار ...
وأن رأوا أحقادهم يمتطونك فى خيلاء القوة ، وعزة الحديد وقبضة
العلم كأنهم ركب من الجن فى زى ناس ...

وهل تملك الجن الجراء أن تطير فى عالم الثلوج البيضاء ؟ !
أفَتَتَنَا يا سليمان ! فإنك أعلم الناس بمالم الريح ، وصاحبُ
البساط ومسخر الجن وملهب ظهورها بالسياط !

وعليك السلام ، فقد كنت ثمرة مبكرة فى شجرة الإنسانية
أمدت أحلامها وغذت آمالها وأفهمتها أن أحلام القدرة والانطلاق
فى حيز الإمكان ، فلم تياس حتى وصلت إلى تلك « الكرامات »
العامة بعد تلك « الكرامات » الخاصة التى صنعها الله لبعض
أسيافه لبشير للنوع بهم إلى طريق التحرر والقدرة والانطلاق !

عبر الهمم موهوب